الطينة

قصة بقلم عبد الرحمن البيك

بين الفينة والفينة كان عبد المجيد يظهر على الناس بفكرة جديدة ترهب بعضهم وتضحك البعض الاخر .

كان عبد المجيد ـ وهو يبلغ الان الستين من العمر ـ من كبار تجار الورق . غير انه منذ سنين خلت ، خبا اسمه في عالم التجارة حتى امسى متجره عبارة عن حانوت صغير يؤمه تلامذة المدارس صباح مساء ليشتروا ما يلزمهم من دفاتر واقلام ومساطر وما اشبه ذلك .

ويمكن ان يقال ان عبد المجيد هو احد الذين زهدوا بالدنيا وسموا عن عالم الواقع ، فلا غرابة والحالة هذه ان ينحو الى حياة البساطة ، عازفا عن التجارة .. تحاشيا للغش والكذب .

وكان متجره الحالي اشبه بمنتدى ، يختلف اليه آباء التلاميذ ويغشاه بعض الشبان الذين كانوا يقضون لديه امتع الاوقات .

وقد كانت عظاته مبنية على التنبؤ بانتهاء العالم وزواله . لذلك كانت هذه الفكرة ـ بحد ذاتها ـ كافية لان تستهوي بعض الزبائن وارباب البيوت .

غير ان عبد المجيد لم يكتف بزف بشراه التي تتحدث عن اقتراب النهاية الى الكبار ، بل اخذ يدس تعاليمه بين التلامذة الصغار . حتى طفت على الحي موجة من التلبد الفكري والقتام الذهني . بحيث خال الجميع ان شيئا ما سيحدث في هذا الكون .

وبناء على ذلك فقد اصاب الاطفال الذين كانوا يتلقون تعاليمه ، بقلوب وجلة ، مس من الذعر ، فراحو يشاهدون احلاما مرعبة .

وقد هال الاباء ظهور هذه العوارض غير الطبيعية في ابنائهم ، فتشاوروا فيما بينهم ثم عزموا على ان ينهوا الامر لدى عبد المجيد كي يفسر لهم هذه الظواهر وكي يكف عن نشر تعاليمه بين الاحداث .

وذهب وفد لزيارته من كبار الوجهاء فخاطبه احدهم ، واسمه جميل :

ـ نحن نقدم اليك رجاءنا ونفوسنا تحترق اسى على ما دهى اطفالنا . اننا نهيب بك ان تقلع عن تلك العادات التي تنشرها بين الناشئة .

فرد عليه عبد المجيد في شدة :

ـ كيف تريدني ان اقلع عن عادات مهيمنة ؟ او لم تسمع ما حدث ليلة امس من هزات ارضية وثوران في جوف الارض ؟. ان الساعة آتية لا ريب فيها ..

ـ ذلك صحيح يا عبد المجيد ، ونحن موقنون بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ولكن لا ينبغي لك ان تهددنا بها في كل آونة فنحن ما زلنا نروم العيش في هدأة وسكينة ، وماذا تظننا نفعل ، هل ترانا نجحد بنعم الله وهل لمست منا الموبقة والرذائل ؟.

ـ هذا حق .. ولكن سواء اكنتم تجنحون الى الاثم ام تعرضون عنه ، فان نهاية العالم قد اقتربت والساعة لن تبق على الارض فاضلا او مجرما انما ستأخذ الاثنين كأنهما واحد .. وعند الحساب تفصل بينهما .

ـ اننا نعرف ذلك يا عبد المجيد ، ولكن لا لزوم لان تعيد في اذهاننا تلك الصور على الدوام .

ـ كيف تقول ذلك ؟ .. هل تريدنا ان نندثر على حين غرة ، لا ...لا. اعلموا ايها الناس ان الحياة قد اصابها ما يصيب القلب من وهن وضعف. فكما ان مريض القلب يتوقع الموت في كل آونة واخرى ، وكذلك امسى الحال بالنسبة للحياة . فانها عرضت لان تنقضي بين حين واخر . فما هو رأيك في الموضوع : هل تريد ان تفاجئنا الساعة والمجرم آخذ بخنق ضحيته ،والسارق واضع يده على المتاع ،والعاشق ضام زوج صديقه بين ذراعيه، والسكير كارع كأس الخمر ، والمقامر يلعب الميسر ؟ لا .. لا .. ان هذا الحال والله لمخجل .. يجب ان يتفق الجميع على خطة ، كي تكون على احسن حال فيما اذا داهمتنا الساعة .

ولم ينبس جميل ببنت شفة ، بل نظر في وجوه اعضاء الوفد نظرات حسرة والم ثم قال :

ـ حسنا .. اننا لن نستطيع ان نهديك الصواب . وحينما رد عليهم عبد المجيد قائلا : « أأنا الضال وانتم الراشدون ؟!» كان اعضاء الوفد قد غادروا المتجر لا يلوون على شيء .

ومضت الايام والاسابيع والشهور . دون ان تقوم للساعة قائمة . وعبد المجيد ما زال يبشر بها وينزر بها ويهدد بها .

وفي ذات يوم وقف امام متجره رجل بدين ، اسمه عبد السميع ، وقال له :

ـ ما هذا يا عبد المجيد ؟. ان ابنتي نوال تقول انك أنبأتها بأن الله سيأكلها ..فهل هذا صحيح ..؟

فأجاب وهو يلصق غلافات الدفاتر :

ـ وهل تصدق ان الله يأكل احدا ؟

ـ ليس غريبا ان تقول عنه انت ذلك .

ـ يا للغرابة !.. كيف تتهمني بما انا مؤمن به اكثر منك .. انني اقول دائما بأن الله سيجعل النار تأكل الاخضر واليابس وان الدمار سيحل الكون .. وسنرى البحار تطول علوا حتى تبلغ السحاب وستقف الانهار كأنها العمد وسترقص كالافاعي .. اما الجبال فانها ستتكسر ثم تميد ..

وستصدم المياه مع النيران حتى تهز منها نار قوية ستندلع من مكان ما، وسيصرخ الرعد في الاذان فيصمها وسوف تدوي في اركان المعمورة زمجرة رياح ستقلع كل ما هو قائم حتى يصير كل شيء على الارض هامدا ساكتا . وثق انك معرض الان للموت .. فما بالك تتعظم الامور وتأخذني بالمعاتبة ؟.

ورضخ جميل لتعاليم عبد المجيد ووقعت في نفسه موقع السحر ، الا انه لم يصدقها في اعماق نفسه . فساله :

ـ وماذا سيحل بالاموال .. اقصد اموالي ؟

ـ اموالك ؟.. ان الله لن يقبل اي انسان يحمل في جيبه نقدا

ـ هل يعني ذلك ان سبائك الذهب مرخصة ؟ .

ـ الذهب ؟.. لا انه سيذوب ويغدو كالمياه وسوف يسيل من مخابئه الحديدة ، رغم ارادة حازمة .

ـ اذن ماذا تقترح ان اصنع ؟ هل ابدل العملة الوطنية بجنيهات ؟ .

ـ الجنيهات ؟ . انها ستحترق كالورق

ـ ما رايك بالدولار ؟

وهنا رفع مجيد الدفاتر بعيدا وقال :

ـ ما هذا ايها التاجر ، انك تساوم على اشياء بغيضة لدى الله .

وبكى الرجل البدين ولطم خديه قائلا :

ـ كيف تقول ان سبائك الذهب غير مرخصة انك تكذب ...

ـ تقول انني اكذب .. ياللوقاحة !..

ـ اجل اقول انك تكذب ! فالخالق لا يأمر بأن افترق عن ثروتي وهو الذي هداني الى جمعها ، وشجعني على المحافظة عليها .. الا تعلم انني قضيت زهرة عمري في تحصيلها .. لا..لا يابني سأبدلها بدولارات .. فالدولار اثبت قيمة من اي نقد ..

ثم غرب وهو يردد بانه سيحول ثروته الى دولارات .

وفي ذلك اليوم علت هامة السماء غيمة كثيفة على شكل مخلب وهبت رياح عاتية اخذت تزأر وهي تمضي فوق الابنية وخلال اسلاك الهاتف ، وانتشر هزيم الرعد ثم هطلت قطرات ساخنة من المطر .. عندئذ اعتقد الجميع بانها الساعة .

وصاح عبد المجيد بالناس « هاهي الساعة آتية لا ريب فيها فلم تعد تنفعكم توبة ايها الناس .. لم تعد تنفعكم توبة .. »

وندت صرخات من النساء ثم الاطفال واخذ الشيوخ يبتهلون الى الله ان يكشف عنهم هذه الغمة . وترك الشبان لهوهم وراحوا يقتبسون الادعية والصلوات عن الشيوخ وانصرفت النساء الى جمع اطفالهن فوق صدورهن . وكف السارقون عن السرقة ، والقتلة عن القتل والكاذبون عن الكذب . حتى ظن الجميع بأن عبد المجيد قد انتصر .

غير ان السحب ما لبثت حتى تقشعت بعد ساعات من الاهوال . وظهرت الشمس تتلألأ ، وسكن الهواء ... عندئذ قطع الشيوخ صلواتهم وأجلين مواصلتهم الى اشعار اخر ، وكفت النساء عن العويل ورحن يزين كي يقمن بنزهتهن المعتادة في حديقة الحي . وكذلك ارتد الشبان الى لهوهم وغزلهم وضرهم بعد ان التفوا فترة من الزمن حول فوزي، استاذ الطبيعيات في احدى الثانويات .

ورغم ان فوزي ، استاذ الطبيعيات ، قد انضم اليهم اثناء كربتهم والتجأ في ملاجئهم واعتصم بحبل ابتهالاتهم وتوبتهم ، فانه سرعان ما صرح بان تلك الظاهرة كانت عادية لا تسترعي الانتباه . وكان قوله هذا أشد تأثيرا في نفوسهم من اقوال عبد المجيد الذي قضى السنوات في الاهابة فيهم .

وفي المساء اوى عبد المجيد الى متجره ، مبئوس القلب ، محزون النفس فاخذ يضرع الى الله ان يعمل عملا بسيطا يبرهن فيه على صدق نبوءاته.

بينما هو كذلك اذ مر به عبد السميع وهو يحمل محفظة مليئة فقال له:

ـ انظر يا عبد المجيد لقد حولت ثروتي الى دولارات ، وفي الغد سأودعها احد المصارف .

وضحك عبد المجيد وقال :

ـ او تظن ان الساعة ستقوم في مكان وتحجم عن آخر ؟

وضحك عبد السميع ثم اقترب من عبد المجيد بعد ان وضع محفظة النقود فوق اكداس الورق :

ـ هل تعتقد بانني اؤمن بساعتك

ـ وماذا تقصد بساعتي ..؟

ـ أقصد ان الساعة التي تعنيها انت غير الساعة التي أعنيها أنا ، ان الساعة في المفهوم الحديث هي الحرب الهيدروجينية التي ستشتعل ، أو لم تسمع الأخبار ؟

ـ كلا لم اسمع الاخبار

ـ ان الحرب الكونية على الابواب

ـ اذن فهذه هي الساعة ...

ـ اذن فهذه هي الساعة ..

واشعل عبد السميع سيكاره والقى بعود الثقاب الذي لم ينطفيء على اكداس الورق والدفاتر فاشتعلت بينما كان يقول :

ـ ان قولك هراء .. فهذه حرب لن ينالنا منها اذى ... اننا خياديون ... هل نسيت ؟!

وانتفض عبد المجيد من مكانه مذعورا .. ينادي مستغيثا ، ولكن صوته لم يطفيء السنة النيران تلك التي اتت على جميع انحاء المتجر ..

وهرب عبد السميع مذعورا .. بينما راح عبد المجيد ، بوسائل غير مجدية ، يحاول اطفاء النار حتى احترقت يداه وثيابه .. فخرج من المتجر لينقذ نفسه .

وكانت جموع غفيرة قد اجتمعت امام المتجر .. جاءوا من كل حدب وصوب يتنادون .. وكانت صيحات من بعيد تنادي .. « كارثة .. كارثة في متجر عبد المجيد »

ووقف عبد المجيد خارج المتجر ، ينظر الى الحرائق التي عمت الحانوت مذهولا مدهوشا . وكان الناس حوله ينظرون الى حاله بعين الاسى .

اما عبد السميع فقد كان يلطم وجهه تارة ويتمرغ على الارض تارة اخرى بعد ان ذهبت ثروته في لمح البصر طعمة لتلك النيران الجامحة .

واخيرا وقف عبد المجيد يقول :

ـ انظروا كيف حلت الكارثة ! كذلك ستحل الساعة !.. الم اقل لكم انكم ستشاهدون النيران تأكل الاخضر واليابس .. فها هي ذي امامكم تشبع بطنها بالدفاتر والدولارات تلك البطن لا يشبعها شيء .. وانظروا كذلك كيف ان مياه رجال الاطفاء تعلو وكأنها الانهار ... واسمعوا هزيم الرعد واصوات الثوران انهما ليسا الا اصوات الرفوف تتكسر وتهبط مع ما عليها من دفاتر .. اواه .. حمدا يا ربي انك نفذت مطلبي ، فأنا الان اشاهد يوم البعث مصغرا ... وهكذا سيكون شاءوا ام ابوا ..

حلب

عبد الرحمن البيك